

## الأجيال في تنظيم الأسرة

منذ اتصالاتي الأولى بنسؤولين عن تنظيم الأسرة في باكستان أحسست بأن المشروع هناك أصبح في متفرق متفرق ، ومن بين الأسباب لاشك حالة الانتفال التي كانت تعيشها البلاد في جميع المجالات ، في ظل حكم ، الجنرالات ، أيوب خان ثم يحيى خان كان تنظيم الأسرة على قمة المشاريع التي كانت تهتم بها الحكومة . كل الأموال اللازمة ، وكل الإمكانيات البشرية والمادية توضع تحت تصرف المشروع بدون عناء ، والعاملون فيها يشعرون أنهم فوق المستوى العادي لباقي موظفي الحكومة . كان هذا أمراً طبيعياً يتسجم مع الترابط القوي بين السياسة الباكستانية والنزوة الأمريكية . السياسة الخارجية تابعة من الأحلاف العسكرية التي ارتبطت بها باكستان منذ إنشائها ، والسياسة الداخلية تابعة من نظام اندكتاتورية العسكرية الذي قضى على كل مظاهر الديمقراطية ، وحال دون التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي ، ووقف جهوده لخدمة الخدمة حفنة من الأغنياء في باكستان الغربية . وقد تبني النظام ، بإيحاء وبتشجيع الدوائر الأمريكية ، فكرة تنظيم الأسرة لمواجهة مشاكل الفقر المتفاقمة بين جماهير الشعب ، وعلى الأخص في باكستان الشرقية ( بنجلاديش الآن ) لتحد من نمو السكاني بديلاً من التنمية ، ووسيلة لتخفيف التناقضات الاجتماعية . . ولذلك فإن باكستان كانت المثل الذي يجسد نظرة الاستعمار إلى المشكلة السكانية وطرق حلها . لقد صرفت مبالغ كبيرة وصلت إلى عشرات الملايين من الدولارات ( ٦٠ مليون دولار ) على هذا المشروع على حين رفضت الدوائر المالية الأمريكية المساهمة في مشاريع التنمية ، وعلى الأخص المنشآت الصناعية .

واعتمد المشروع بشكل أساسي على تجنيد جهود الآلاف من للعاملين وأساساً « المدايات » ليقمن بإقناع النساء في الريف أن تركيب



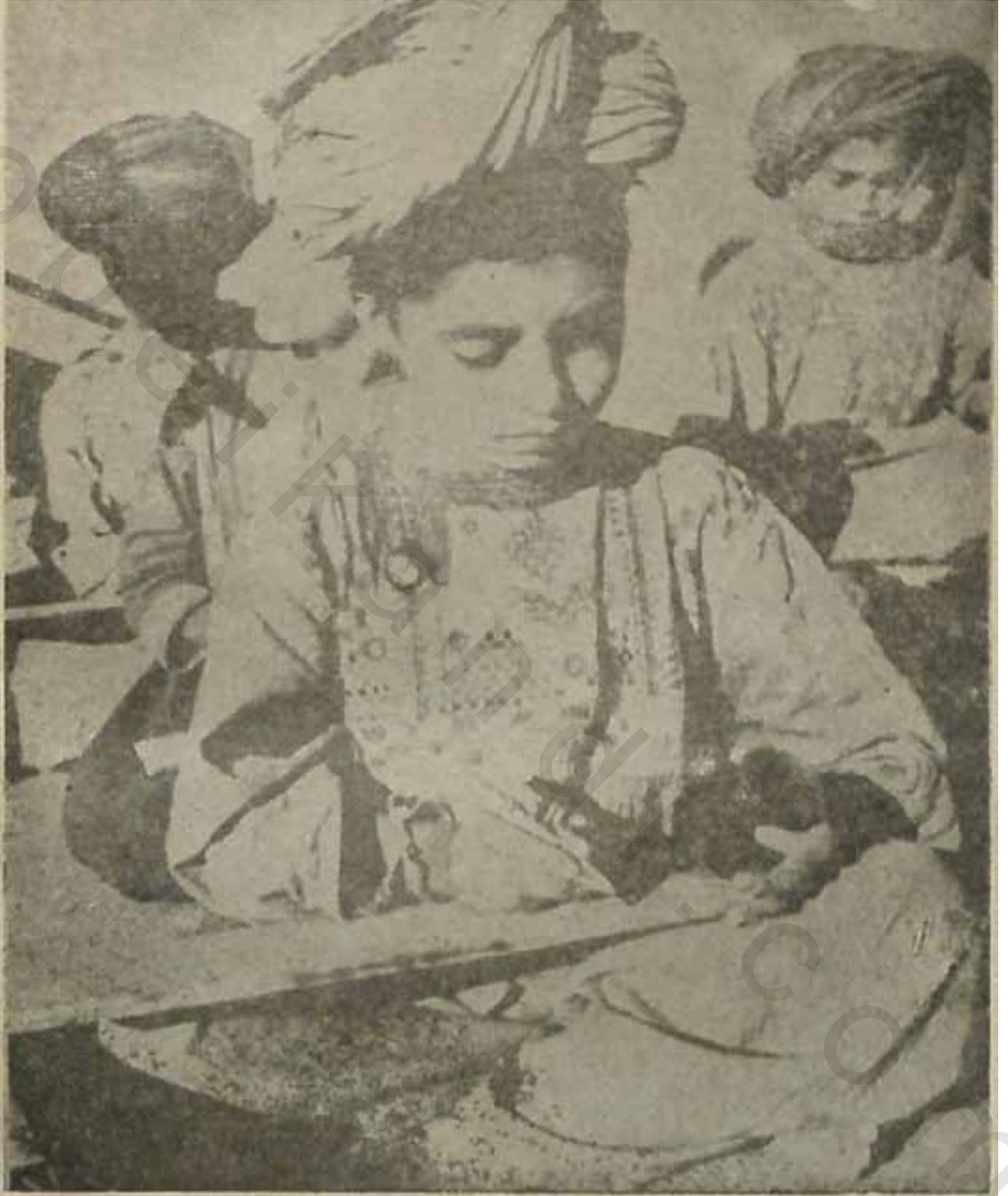
باكستان : في البوري بزار . الأواني النحاسية المرسومة . دقة و إتقان

اللولب : بهدف منع الحمل ، أمر مفيد لمن . كما تركزت الجهود أيضاً على إقناع النساء ورجال بإجراء عمليات التعقيم . وأقيمت معسكرات تخصيصاً لهذا الغرض . وكانت تدفع مكافآت مالية سواء للدايات ، أو للسيدات ثلاثي يوافقن على تركيب اللولب ، أو للرجال الذين تجرى لهم عمليات تعقيم . وتحويل المشروع بالتدريج إلى عملية تجارية ضخمة تستغل حاجة الفئات الفقيرة إلى المال لتغريها على استخدام أساليب منع الحمل .

وبرغم كل الجهود أخفق المشروع في تحقيق أهدافه . ذلك أن الاستعداد للتحكم في الإنجاب وعلى الأخص في المجتمعات الريفية يتولد أساساً نتيجة للتنمية الاجتماعية الاقتصادية وما يصاحبها من تحضر ، وتصنيع ، وميكنة . وتشغيل للمرأة وقضاء على الأمية ، وارتفاع في نسبة التعليم وتحسن في مستوى المعيشة وفي التغذية ينخفض وفيات الأطفال . وعندئذ توجه هذه المجتمعات اتجاهاً أكثر إلى الإقلال من الإنجاب . أما محاولة إقناع الأسر بالتقليل من عدد أطفائهم بدون أن تتغير ظروف حياتهم فهي محاولة أثرها محدود . إن التنمية والمشكلة السكانية كوجهي العملة الواحدة يؤثر كل منها على الآخر ويتأثر به .

يضاف إلى ذلك أن الاعتماد على الدايات كانت محاولة مقصيةً عليها بالإخفاق لأن « الدايات » يعتمدن في حياتهن على ولادة الأطفال ، ولذلك ليس من السهل الركون إليهن في الدعوة لتحديد الإنجاب .

لقد أدت أحداث الحرب الباكستانية إلى تفجير كثير من القضايا ومن بينها تنظيم الأسرة ، واحتدم الصراع بين أجيال المسؤولين القدامى الذين تحملوا مسؤولية المشروع وبين الشبان الذين أدركوا أنه في هذا المجال قد اتبعت سياسة مضللة ، هدفها صرف الأنظار عن المشاكل الحقيقية والطريقة السليمة لمواجهتها .



باكستان : الأطفال يتعلمون في الكتّاب القرآن والحساب

وربما كانت مثل هذه التعثرات في مواجهة المشكلة السكانية هي أحد العوامل الخفية التي نبيت الأذهان في التسنين الأخيرة إلى أن أية محاولة للتفصل بين مشكلة الانفجار السكاني وبين قضايا التنمية الاجتماعية الاقتصادية مأخذا الإخفاق في مواجهة هذه المشكلة .

• • •

كانت الساعة قد قرابت الساعة عندما نحت شارباً طويل القامة يحول بعينه على الجالسين في الفندق . كنت جالساً بجوار النافذة أنطلع إلى السيارات تمرق عبر الشارع في سباق هادئ ، وأضواء الليل تتلألأ على واجهة المحال والمطاعم والفنادق . تقدم نحوي بخطوات مترددة فقممت من جلستي وقلت :

« مساء الخير . أنا الدكتور شريف »

أضاعت وجهه ابتسامة مرحة وقال :

« هيا بنا السيارة تنتظرنا . أنا الدكتور علاء الدين »

كنت قد قابلت زوجته الطيبة في الصباح في أثناء زيارتي لمقر الإدارة المشغولة عن تنظيم الأسرة لمقاطعة كراتشي . جلسنا حلقة واسعة من الشباب الباكستاني ، منهم أطباء وإحصائيون اجتماعيون ورجال إعلام . دار الحديث متحفظاً أول الأمر ، منطلقاً حرراً بعد أن أحسوا بأنني أتكلم معهم بصراحة ، وزاد حماسهم عندما علموا أنني أكتب في بعض الأحيان . ففي كل مكان تجد أن الكتابة لها جاذبية خاصة للناس ، تفوق جاذبية أية مهنة أخرى . فعندما يسمع الناس أنك تكتب تشرق وجوههم بذلك الخليط من الدهشة والإعجاب الذي يضيء عاينها حيوية ويفتحون لك قلوبهم .

المسئول عن الإدارة طبيب شاب تترك من أول لحظة أنه من أبناء الطبقة الموسرة في باكستان بل ربما من الثقات الأرستوقراطية . أحسست بارتياح عميق إزاء هذا الشاب . وجهه الأبيض منحوت في خطوط

حادثة واضحة لا تخاور من مسحة جمان أنثوى . كان هادئاً يميل إلى الصمت ويتحدث بحساب كأنه يفكر قبل أن يتكلم . شعره الكثيف يسقط كالجنح الأسود فوق جبهته ، وعيناه تلمعان بريق كالنصوص كلما تحمس لفكرة . شيء ما فيه يوحي بشعنة من الفن الدفين .

« شبابنا في أزمة طاحنة . أحس أنه غرر به وأفاق على آماله تنهار مع الجريمة . لا بد أن نعيد بناء بلادنا ، ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال » .

قال شاب أسمر كان يجلس على يميني :

« الرأسمالية طريق مسدود » .

تدخلت سيدة في مقتبل العمر شعرها تتخلله خيوط من الشيب كالحرير الفضي في السواد الكثيف وعيناها الواسعتان تشع منهما الطيبة ، وشيء كالخزن الدفين :

« لا تتسرعوا . إن تفكيركم هذا هو الذي يقود الكثيرين إلى اعتبار ما يدور في الصين حلالاً لما كلنا » .

في آخر الحجرة كان يجلس رجل انغمس بجسمه الضخم في المقعد العميق . رأسه يعلو فوق الجميع تغطيه هالة من الشعر الأحمر الملهب . مال على مرافقي وهمس في أذني « إنه شاعر » . كان يجلس صامتاً مغمض العينين كأنه سرح بذهنه بعيداً عن الحديث . فاجأنا صوته العميق يرتفع من جوف الصدر العريض :

« في المراحل الأولى عندما ساد النقاء الثوري ، والمبادئ الصارمة والإصرار على العدالة ، وعلى التضحية وعلى المساواة كان الإسلام هو الإسلام . وعند ما استشرى بريق المال ، وتفتت الطبقة ، وأقيمت الممالك دخل الإسلام في عهد الاضمحلال . والإسلام نجح عندما كان حاداً كالسيف . ولكن عند ما بدأ المسلمون بلعبون بالمبادئ ، والحلول الوسطى ، والمساومات ، وسياسة البلاطات أهدرت المساواة في الإسلام ، المساواة هي من صلب الإسلام . ومن يقل عكس ذلك فهو يفسر الإسلام

على هواه . ونحن نستطيع أن ننظر إلى الصين بدون أن تقدم إيماننا ،  
إذا أدركنا المعنى الحقيقي للإيمان . إن تعريف الإيمان هو الذي يضعف  
الذين لأنه عندئذ يدخل في تناقض مع أحلام الإنسانية في فرص متساوية  
وحقوق متساوية لكل البشر . لقد قال الله سبحانه وتعالى :

( ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ) ولم يقل طبقات . . .  
ساد الصمت في الحجرة . تدخل الطيب انشاب .

« ضيفنا أتى لدراسة تنظيم الأسرة وليس لسماح مناقشاتنا في السياسة .  
واليوم سيذهب إلى حيدرآباد . لا بد من الرحيل الآن إذا أراد أن يعود  
اليوم » :

همست الطيبة :

« يشرفنا أن تتناول العشاء مع أسرنا الليلة . سنمر بك في الفندق  
الساعة السابعة مساء » .

هكذا وجدت نفسي محمولا في السيارة عبر شوارع كراتشي .  
تركت النسيم يعبر النافذة المفتوحة . الأصوات المرحية وأنغام الموسيقى تأتي مع  
الريح من مكان بعيد ، يتملكني شعور المسافر الذي لا يتساءل إلى أين  
يسير ، وقد استلهم لسعادة اللحظة التي لا تعاش إلا مرة واحدة .

نزلنا من السيارة قرب الميناء . سرنا مسافة قصيرة بجوار جدار عال  
ثم دخلنا من باب ضيق . لمحت أشعة بيضاء تشق الظلام في صفوف  
تبدو كالرماح الطويلة . الأمواج الصغيرة تصدم الرصيف بصوت رتيب  
يهدد الأعصاب وأضواء قليلة متفرقة ترفص فوق مساحات الظلام .

سار بنا المركب فوق سطح المياه ، كأننا نترلق على الفراغ . أخذت  
عيناي تميز الأجسام والوجوه . كانوا أربعة : هم الزوج والزوجة وولداهما  
شاب وفتاة . الأجسام فارعة الطول فيها ليونة الخيزران والوجوه سمراء  
تومض ببياض الأسنان في الظلام ، وتشتع في هدوء الواثق من نفسه .

كانوا يتحركون كأنهم جزء من الطبيعة . المركب يشق طريقه كالسكين  
 وفي السماء تلالاً نجمة وحيدة .

جلس الطيب إلى جوارى :

« الليلة نحتفل بعيد زواجنا العشرين » تطلع إلى زوجته ثم صمت .  
 ضغط الشاب على مفتاح جهاز تسجيل كان يحمله معه .  
 قال الطيب :

« أغنية من البنجاب » .

صوت امرأة يرتفع في السكون ، طويلاً ممتداً كأنها تغنى للزمن .

• • •

« في السماء ومض ضوء أحمر ، طائرة تدور فوق المدينة استعداداً  
 للمهبوط .

أدركت فجأة أن الرحلة انتهت .

الرحلة انتهت . ولكن الحياة تسير :

تري . . . إلى أين ؟ »